الأخلاق والحضارة

« الحضارة كالخمر تظهر المناقب والمثالب »

لعبد الرحمن شكري

يقولون إن الحضارة مفسدة للاخلاق وهذا قول نصفهُ حق ونصفهُ باطل كما هو شأن الجمل العامة التي تطلق على علاتها فان الحضارات يختلف مستواها الخلقي وللحضارات محاسن خلقية كما ان لها رذائل والحضارات تختلف مظاهر الأخلاق فيها في أطوارها وعلى حسب الأساس التي بنيت عليها ولنقيض الحضارة مفاسد خلقية ايضاً والمتحضر يبالغ في مفاسد نقيض الحضارة قدر مبالغة غير المتحضر في مفاسد الحضارة أو انهما لا يكادان يزيان غير المفاسد وهو الاصح لأن النفس البشرية هي التي قد تبالغ في اظهار مفاسدها . ويقولون ان علوم الحضارة الحديثة مفسدة للاخلاق متلفة للمناقب والصواب انها تنشيء فرصاً لاظهار ما استتر في النفس من خير لا يرجو جزاء ومن شر لا يخشى عقاباً وانما مثلها مثل الخمر التي تظهر المناقب والمثالب من خير وشر فمن كان كريماً أظهرت كرمه ومن كان لئيماً كشفت عن لؤمه . ففكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الاضعف او ببقاء الأصلح للحياة وهلاك الأقل صلاحاً لها (لأن الاضعف جثمانيًّا قد يكون في لبه من الهبات الصالحة للحياة أكثر مما في لب الأقوى) أقول هذه الفكرة قد أولت تأويلا يعذر القوي في استعباد الضعيف ويعذر الضعيف عند قسه في خنوعه ويسخر من المبادىء السامية . قال الاستاذ هولاند روز المؤرخ الانكليزي في اسباب تغلب حب الاستعمار والسيطرة (إنهُ لما ذاعت فكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الأضعف جعل الناس يتساءلون لماذا يُحَمَّى الضعيف اذا كان صلاح الكون في ضياعهِ وهلاكهِ) . فكانت هذه الفكرة كالخمر زادت وأبرزت ما في النفس من حب الاستعلاء . وقد بالغ المفكرون حتى ظهر بينهم من يقول ان التشبث بالجنس والوطن لا يؤلف القلوب كي تتعاون في نشر السلم والحضارة العالمية والامن والسعادة وكي تسعى في رقي الانسان والانسانية عامة . وقال المؤرخون ان التشبث بمبادىء المحافظة على الجنس والوطن سرعان ماينقلب الى ضراوة استعمارية ورغبة في السيطرة والحروب كما ظهر مراراً في تاريخ أوربا

الحديث كلما قويت جنسية من الاجناس التي كانت تنادي بمبادىء العدل العام والسلم عندما كانت مقهورة مغلوبة على أمرها فانها اذا قويت لا تلبث ان تنادي بأن الحضارة العالية لا تتحقق الا بتناحر الأجناس وتقاتلها حتى وإن كان في آلات القتال الحديثة ما يهدد العالم بالخراب

وقد ارتاع بعض المفكرين وخافوا على أممهم من تفشي مبادىء الفلسفة الهادمة وقد جعل بعضهم يروّج العقائد الدينية بوسائل قديمة جديدة مثل تشجيع تحضير الارواح وذلك لأنهم خافوا على الحضارة من مبادىء الفلسفة المادية وخافوا على الأخلاق منها وكان تشجيعهم تحضير الأرواح كي يثبتوا بأدلة مادية عقيدة خلود الروح تلك العقيدة التي كانت تدفع بالمجاهدين من المسلمين في صدر الاسلام في هوات الموت غير مكترثين له موقنين ان الموت ليس لهُ سلطان على الروح وأنهم اذا خسروا هذه الحياة الدنيا الفانية فقد ربحوا الحياة الباقية فكان من وراء ذلك الاعتقاد استعلاء أممهم وسيطرتها. ولعل من أسباب زيادة نصرة المفكرين لمذهب استحضار الأرواح ومكالمتها وذيوعه في السنين الأخيرة رغبتهم في مواساة من مات لهُ قريب او حبيب في الحرب العالمية الكبرى (مواساته او ابتزاز ماله) ورغبتهم في حث الجماهير على ان يجودوا بحياتهم لنصرة أممهم إذ ان لم وراء هذه الحياة حياة باقية. فان المرء لا يجود بحياة ليس لهُ غيرها قدر ما يجود بحياة وراءها حياة خير منها وبقدر يقين المرء وإيمانه بالحياة الأخرى يكون جوده بهذه الحياة . على ان الدفاع عن الأهل والوطن أصبح طبيعة لا يلبث المفكر طويلاً حتى يؤوب اليها وقد وصف الكاتب الفرنسي موريس لو بلان هذه الحقيقة في قصته المسماة (على الحدود) وقلما تجد من له شجاعة او عناد يمكنهُ من ان يمتنع عن الدفاع عن بلده وان يقف موقف رومان رولان الكاتب الفرنسي الشهير في اثناء الحرب العالمية وان كان قد حاكاه في انجلترا أناس صاروا يسمون بطائفة «اعتراض الضمير». نعم إن هذا الدفاع يصير اندفاعاً آليًّا باعثه الخوف وللخوف شجاعة وحماسة في اندفاعه ولكن شتان بين شجاعة اندفاع الخوف وشجاعة العقيدة والأمل والرغبة في الحياة الباقية الأخرى

لكن الباعث عند جمهور الناس هو ان يفدي المرء وطنه بحياته محافظة على عاداته ومبادئه والفوائد التي يشترك فيها اهل الوطن. والشجاعة مزاج في النفس وقد تتوافر بالرغم من اعتناقه آراء الفلسفة الهادمة كما انها قد لا تتوافر بالرغم من اعتقاده في خلود الروح. فاذا كان المسلمون قد أقدموا على الموت في حروبهم في صدر الاسلام فقد أقدموا لأن اعتقادهم في خلود الروح كان مقروناً عندهم بمزاج الشجاع القوي ولوفرة نصيبهم من الحيوية . وكم من جيوش قد هُزمت وجبنت بالرغم من اعتقادها في خلود الروح. ونحضرنا الآن ذكرى قصة شائقة من قصص الكاتب الاميركي جاك لندن وعنوانها (دين آبائه) وفيها يصف كيف ان قبيلاً ضيف الاعصاب

والارادة عند ما هدده رجل مجرم تاثر من سلالة التزاوج بين البيض والهنود الحمر، وخيّره بين الحياة مع انكار المسيح وشتمه وبين الموت اختار الحياة مع انكار المسيح بالرغم من انه كان من المبشرين. ولما خيّر رجلاً آخر من الغاة الملحدين فضل القتل حتى الموت واستحيا من ان يجعل انكار دين آبائه وسيلة للنجاة من الموت

وقس على ذلك أثر الحضارة في المعتقدات الاخرى فان بين الناس من ينصر الفضيلة بالرغم من اعتناقه الآراء المادية الهادمة ومنهم من ينصر الرذيلة بالرغم من اعتقاده في الحياة الاخرى والجزاء والعقاب . ولكن مما لا شك فيه ان الكفر بالحياة الاخرى قد أصبح مثل الحمر التي تظهر مكامن النفس وكثير من النفوس لا تمتنع عن الاثم والجرم الا رغبة في جزاء في الآخرة او خشية عقاب. فالالحاد كالخمر يظهر ما كمن من الشر فيها وما تعالج من ميوله . فالفضائل والرذائل طبائع في النفوس وقد ترى في الناس من يفخر بالرذيلة وهو منها اقل نصيباً مما يقول اذا شجعته بيئته على ذلك الفخر كما ان من الناس من يفخر بالفضيلة وهو قليل النصيب منها ولكننا نسرع الى تصديق الاول ونسرع الى تكذيب الثاني في كثير من الاحايين وان كان للخداع مجال في الحالتين

وبين الناس طائفة اخذتهم نشوة بعض الآراء الفلسفية فقالوا ان الفضائل من مظاهر الضعف كالولاء والامانة والوفاء والعدل والذمة وقالوا ان النفوس القوية لا تتقيد بها و يسمون الفضائل اخلاق الضعفاء وسجايا العبيد وهم انما يقولون هذا القول كي يقضوا على النظام الاجتماعي الحاضر لمخالفتهم نظمه ومبادئه الاقتصادية . فقولهم انما هو سلاح مؤقت لا حقيقة ثابتة ويسر باستخدام سلاحهم هذا المجرمون الذين تدفعهم رذيلتهم إلى اعتناق هذه النظريات الهادمة ، لا ان هذه النظريات الهادمة هي التي تخلق رذائلهم . ويقولون ماذا يهمنا ان يلحق الضرر غيرنا من الناس ولماذا نبالي الناس ويقولون انه فرض عليهم ان ينسوا انفسهم بأن يطلقوا لها العنان فتسترسل فيما تريد ويقولون سيان ارتكابك الشر وغشيانك الخير مادامت الحياة فانية. ويقولون ان حياة الملايين من البشر ليست اعظم عند الطبيعة من حياة الضفادع او الحشرات. وتنتشر هذه المبادىء اذا اشتد التناحر على المعاش وقلت الثقة بالنظام الاقتصادي او النظام الحكومي ويزيدها الشعور بالغبن وقلة الانصاف . على ان المرء لو لم يراع اخلاق الكمال هذه بعض المراعاة في معاملة من لا يؤمن بها لارتاع ذلك الجاحد لها وذم نفوس الناس. والضرر الذي يلحق الجاحد لها لا يأتيه من ناحية ابناء قومه فحسب بل يلحقه ايضاً من الضعف الذي يذل امته بسبب تفشي هذه الاخلاق فيها ولكنهم يقولون اذا كانت الامم تبيح غشيان الرذائل في معاملة الامم الاخرى فلماذا لا تجيز الأفراد ذلك في معاملة الواحد للواحد منهم كي يبقى الأصلح للبقاء وهم لو فعلوا

ذلك وساروا على هذه الخطة كل السير لا متضمهم قوم آخرون لتخاذلهم. واما بقاء الأصلح فيكون باتباع مثل الكثار ولو الى حد ما. ومما يجلب الوهن ايضاً والتخاذل وانعدام الثقة بالاخلاق والفضائل تقديس الحقوق الفردية الى حد ان يكون كلُّ فرد كجزيرة مستقلة في بحر الانسانية لا شأن له بغيره. ومبدأ الفردية هذا قد يكون من نتائج المغالاة بالحرية الشخصية التي تسنها المبادىء الديمقراطية ولكنهُ ايضاً قد يكون من مظاهر التخاذل والاثرة في الامم القديمة التي مرت بها عصور حكومات مستبدة جعلت كل انسان لا يفكر الا في نفسه وجعلت كل انسان من المحكومين المقهورين على طبائع الحكام فيصير كل انسان من المقهورين مستبداً صغيراً يعامل المقهور مثله بطباع الاستبداد في الرأي والفعل والمشيئة. فاذا أُتيحت فرصة عمت فوضى شاملة لأن كل انسان في تلك البيئة على طبع الاستبداد لا يقدس غير أثرته وهو يظن ان طبعه هذا فضيلة التمسك بالحرية وبالمبادىء الديمقراطية لنفسه ويمدح نفسه لدى نفسه ولدى غيره اذا لجَّ في فوضى الاستبداد وطبائعه زاعماً أنهُ بطل من أبطال الحرية وهو ضحية عصور الاستبداد القديمة وطبائعه الراسخة في نفسه. واذا انتشرت في بيئة هذا الانسان المبادىء المضللة التي تزري بالفضائل والاخلاق وتعدها من سجايا العبيد كان الاضمحلال أعظم والخطر أشد. ولا سيما اذا تكاثر السكان واشتد التنافس على المعاش وأبرز هذا التنافس غشاء النفس كما تبرز القدر الفائرة قذاها ويفوت هؤلاء ان حدود الاخلاق هي من تجارب الانسان ومن ثمرات خبرته وهي تراثه الطارف والتليد وذخره النفيس وقد سمعت السامآ يتغنى بقصيدة لشاعر أوربي هو على ما أذكر من الشعراء الاغريق الحديثين ويقول الشاعر في قصيدته (خذ معولاً واهدم به كل ما يعتقد الناس أنهُ جميل او جليل او مقدس من الآراء والانظمة والفروض والاخلاق واهدم ماضي الانسانية كله ولا تذرف عليه دمعة) وهذه هي الفوضوية بعينها وقد فاتني امثال هذا انهُ لو اتيح للفوضوية أن تنشىء حكومة ثابتة لكان اول همّ هذه الحكومة كي تتمكن من البقاء ان تقضي على الفوضوية ذاتها

وكل مذهب من المذاهب الهادمة للاخلاق قد جرب فيما مضى من الزمن ونبذ بعد حين حتى المذهب الذي يغري بالشرور كي تعرف الانسانية ان الحياة شر وتنقطع عن التناسل

ومهما تعظم شرور الحياة فان في النفوس قلعة للايمان بها وبارادة الله فيها وكلما دُككت قلعة في النفس لذلك الايمان بنيت على انقاضها قلعة أخرى أو كما قال امرسون الاميركي (ان في قلب المرء معبداً كلما تهدم بنى الله على انقاضه معبداً آخر) وقد يلوّث هذا المعبد ما في النفس من شر ولؤم حتى تحسب النفس ان شرها ولؤمها خير لا ينفصل عن ذلك المعبد ولكن من الايمان بالحياة وبارادة الله فيها أن نعتقد ان شر النفس ولؤمها سيطهر منهما ذلك المعبد